

الصلوات الدبلوماسية
ببيروت
هرُونَ الرَشِيدُ وَشَارِلْمَانُ

محاضرة القيت في نادي القلم
ببغداد

بقلم
الدكتور محمد خير زكريا

حقوق الطبع محفوظة

مطبعة التفيض الاهلية - بغداد

١٩٣٩

الصَّلَاتُ الدِّلَوِيَّةُ

بَيِّنَات

هَرُونَ الرَّشِيدُ وَشَارِ الْمَلِكِ

محاضرة القيمة في نادي القلم

بغداد

بقلم

(الدكتور محمد عزوي)

58114

حقوق الطبع محفوظة

مطبعة التفيض الاهلية - بغداد

١٩٣٩

فقده استاذ الدكتور اسد رستم الاكرم
٤٧ رشتباط / ١٩٢٩

فقده محمد صوري



كتب اخرى للمؤلف

قوانين الحرب والسلام عند العرب

رسالة بالانكليزية تحت الطبع ، وهي اطروحة
الدكتوراه التي قدمها المؤلف الى جامعة شيكاغو

تحرر العراق من الاستراب

بغداد : مطبعة العهد . سنة ١٩٣٥

المسألة السورية

الموصل : مطبعة ام الربيعين . سنة ١٩٣٤

اسباب الاهتلال البريطاني للعراق

الموصل : مطبعة الشعب . سنة ١٩٣٣

نظام الاستراب

الموصل ام الربيعين . سنة ١٩٣٣

المقدمة

اثير حول صلوات الخليفة هرون الرشيد بالامبراطور
شارلمان مساجلة طويلة بين بعض الكتاب الغربيين فوضعوا
نظريات خطيرة لتعليل طبيعة تلك الصلوات من الوجهتين
التاريخية والقانونية . ولما كان هذا الموضوع اكثر مساساً
بحياتنا الثقافية رأى كاتب هذه الرسالة ان يدرس آراء
ونظريات اولئك الكتاب ثم تناولها بالنقد والتقدير من
وجهتيها التاريخية والقانونية .

بغداد

١٠ — ٢ — ١٩٣٩

م . ف . خ



الفصل الاول : الصلات الدبلوماسية بين العباسيين والفرنك ٩
قبل عهد هرون الرشيد .

١- الوضع السياسي العالمي في اوائل عهد الخلافة العباسية ، ٩ ✓
٢- الصلات الدبلوماسية بين المنصور وبين القصير . ١٦ ✓

الفصل الثاني : الصلات الدبلوماسية بين هرون الرشيد وشارلمان ٢٠
١- سياسة شارلمان الخارجية . ٢٠

٢- تبادل الرسل بين شارلمان وهرون الرشيد . ٢٣

٣- تبادل الرسل بين شارلمان وبطريق القدس . ٣٢

٤- وفود شارلمان الاخرى الى الرشيد . ٣٤

الفصل الثالث : نظريات في تحليل طبيعة الصلات الدبلوماسية ٣٩
بين العباسيين والفرنك .

١- نظرية المسيو برييه . ٣٩ ✓

٢- نقد الاستاذ جورنسن لنظرية المسيو برييه . ٤١

٣- نظرية الاستاذ بكر . ٤٥ ✓

٤- مركز شارلمان الشرعي بمقتضى نظرية الاستاذ بكر . ٥٠

٥- نقد نظرية الاستاذ بكر . ٥٥

٦- كلمة ختامية ٦٠

نوطۃ

نجد المصادر الاولى الباحثة في موضوع الصلات الدبلوماسية بين هرون الرشيد وشارلمان فرنجية ، ذلك لأن المصادر العربية الاولى ساكتة سكوتاً تاماً عن هذا الموضوع ، وقد ساق هذا السكوت الاستاذ بارتولد الروسي (W. W. Barthold) الى انكار تاريخية هذه الصلات ، لأنه يعتبر الغموض في المصادر اللاتينية واضطراب رواياتها وسكوت المصادر العربية المعاصرة اسباباً كافية لنفي هذه الصلات (١) . وربما كان اول كتاب عربي ذكر هذه الصلات هو

(١) يؤيد الاستاذ بارتولد بموقفه هذا رأى كاتب آخر اسمه بوكيفله (Pouqueville) الذي نشر رسالة بالفرنسية سنة ١٨٣٣ انكر فيها وجود مراسلات دبلوماسية بين هرون الرشيد وشارلمان . وقد كتب الاستاذ بارتولد مقالا ضافيا باللغة الروسية يدعم فيها هذا الرأي . ولا توجد ترجمة كاملة لمقال الاستاذ بارتولد ولكن الاستاذ بـكلر (Buckler) قد ذيل كتابه « هرون الرشيد وشارلمان » (*Harun'ul-Rashid and Charles the Great*) المطبوع في اميركا سنة ١٩٣١ بملخص جيد لذلك المقال (انظر الصفحات ٤٣ - ٤٧) . ويوجد تلخيص ونقد آخرين في اللغة الالمانية للاستاذ شمت (F. F. Schmidt) في مجلة « الاسلام Der Islam » لمشتها الاستاذ بكر (Becker) المجلد ٣ ص ٤٠٩ - ٤١١ .

كتاب الاستاذ جميل نخلة المدور المسمى « كتاب حضارة الاسلام في دار السلام (٢) ». إلا ان الاستاذ المدور لا يذكر من اين استمد هذه الفكرة مع انه يكثر من الاشارة الى المصادر العربية الاولى ، بيد ان هذه المصادر ذاتها لا تذكر شيئاً بشأن هذا الموضوع (٣) فهل نوافق الاستاذ بارتولد ونرفض تاريخية الصلات الدبلوماسية بين الرشيد وشارلمان على اساس سكوت المصادر العربية ؟ ان قاعدة الاعراض عن المناقشة او التفكير في موضوع حين سكوت المصادر التاريخية عنه (٤) غير قابلة التطبيق هنا لأن سكوت المصادر العربية المعاصرة وعدم دعمها رواية المصادر اللاتينية لا ينفيان تاريخية الصلات فقد يكون ثمة اسباب لهذا السكوت (٥) . ويرى الكاتب الروسي

(٢) المطبوع في مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٨٨٨ . راجع الصفحات ٢٦٦ - ٣٠٤ .

(٣) قد يكون الاستاذ المدور استقى الفكرة من مصادر فرنجية او قصص الف ليلة وليلة على ما يرتأى الاستاذ بارتولد في بعض من كتب في هذا الموضوع (راجع ملحق الاستاذ بكلر الاول ص ٤٣) . وقد اعتمد الاستاذ فازيليف الذي نقد مقال الاستاذ بارتولد ، في جملة ما اعتمد عليه ، على الاستاذ المدور (راجع بكلر . الحاشية ص ٢٥) .

(٤) تسمى هذه القاعدة عند الباحثين بحجة السكوت (Argument from silence) .

(٥) لقد بحث بعض الكتاب في الاسباب التي جعلت المصادر

فازيلييف (Vasiliev) الذي قد مقال الاستاذ بارتولد مؤيداً تاريخية الصلات بين الرشيد وشارلمان ان المصادر اللاتينية المعاصرة صحيحة على وجه الاجمال وبواقفه في ذلك اكثر علماء العصور المتوسطة (٦) اما ان هذه المصارر قد بالغت في شأن هذه الصلات فهذا موضوع آخر سنتناوله فيما بعد .

العربية المعاصرة ساكتة عن هذه القضية وذهبوا في تعليل ذلك مذاهب شتى . فالاستاذ جورنسن (Joranson) يرى ان المصادر العربية لم تذكر الصلات بشارلمان على فرض ان المؤلفين المسلمين لا يوافقون على تحالف الخليفة مع عاهل مسيحي . ولا يرى رأى الاستاذ جورنسن لان المصادر العربية المعاصرة ذاتها تذكر صلات العرب بالبيزنطيين وتذكر معاهدات صلح عقدها معاوية ومروان معهم . راجع مقال الاستاذ جورنسن « المحمية الفرنكية المزعومة في فلسطين » (*The Alleged Franhish Protectorate in Palestine*) في مجلة التاريخ الامركية ، ج ٤٢ (كانون الثاني سنة ١٩٢٧) الحاشية ص ٢٥٨ . وربما كان السبب الذي من اجله سكنت المصادر العربية ان المؤرخين العرب لم يروا في مجرد ان يمر وفد اجنبى ببغداد شأننا ذا خطر ومن المحتمل انهم لم يعلموا باتصال الوفد بالخليفة وما دار من الحديث . وقد تكون المصادر اللاتينية ايضا مغالية في شأن المراسلات بين الخليفة وشارلمان تعظيما لذلك العاهل الاوربى .

(٦) راجع مقال الاستاذ جورنسن الآنف الذكر ، ص ٢٥٨ - ٢٥٩

تذكر المصادر اللاتينية المعاصرة أخباراً مقتضبة متعلقة بالصلات بين شارلمان وهرون الرشيد وهي غامضة الغموض كله من حيث عوامل انشائها . اما المصادر المتأخرة عن ذلك العصر فتسج قصصاً مفصلة ولكن شأنها قليل من الوجهة العلمية . واما المصدر اللاتيني المعاصر فهو « الاخبار الملكية الفرنكية » (*Annales Regni Francorum*) وما جاء فيه جد مقتضب لا يشفي غليل الباحث في تعيين طبيعة تلك الصلات . وقد عرض آينهارد (Einhard) لتفصيل هذه الصلات في كتابه « سيرة الامبراطور شارل الكبير » (*Vita Caroli Magni Imperatoris*) (٧) ومن المتفق عليه الآن ان آينهارد اعتمد في روايته على « الاخبار الملكية الفرنكية » مع الاقرار ايضاً بانه كان مطلعاً بنفسه على المراسلات الدبلوماسية في القرن التاسع في بلاط شارلمان وربما علق بذهنه بعض الاخبار التي ذكرها في كتابه فضلاً عما جاء في الاخبار الملكية . إلا ان آينهارد لا يعتمد عليه كثيراً علماء العصور المتوسطة ويرون في مؤلفه في شارلمان كثيراً من الشطط (٨) .

(٧) وقد نشر هذا الكتاب في باريس الميسو هلفن (L. Halphen)

سنة ١٩٢٣ .

(٨) راجع كتاب الميسو هلفن « دراسات انتقادية لتاريخ

شارلمان » وعنوانه :

أما أول دراسة علمية حديثة للموضوع فهي بقلم الكونت دي ريان (Comte de Riant) في أو آخر القرن التاسع عشر، وهي تحقيق دقيق مبني على فرض أن المصادر اللاتينية صحيحة في روايتها (٩). أما المباحث الانتقادية فهي حديثة العهد جداً . وأول من تطرق في التعرض للموضوع الأستاذ بارتولد ، فهو ينفي تاريخية الصلات الدبلوماسية على ما جاء في المصادر اللاتينية ويستنتج في خاتمة بحثه أن هذه القصة ربما كان مصدرها دخول أفراد من الفرنجة البلاد الإسلامية وأفراد من المسلمين في الامبراطورية الفرنكية على ما كان يجري يومئذ بدافع التجارة ، ففسرها البعض تبسّادل سفراء بين خليفة المسلمين والامبراطور شارلمان . ويرى أن ما في المصادر اللاتينية من الاخبار لا يكفي لتصديق تلك الصلات في حين أن المصادر العربية المعاصرة لا تذكرها . لذلك ينكر تاريخية الصلات

L. Halphen, *Etudes Critiques sur l'Histoire de Charlemagne* (Paris : Felix Alcan, 1921), PP. 78 - 79.

(٩) راجع قائمة بأسماء اشهر من بحث في الموضوع بقلم ستيفن رنسيمان في مقاله « شارلمان وفلسطين » في مجلة التاريخ الانكليزية المجلد ٥٠ ص ٦٠٦ (الحاشية) :

Steven Runciman, "Charlemagne and Palestine", *The English Historical Review*, Vol. L, Oct. 1935, P. 606 n.

بين الرشيد وشارلمان (١٠) . وقد رد على الاستاذ بارتولد زميله
الاستاذ فازيلييف ونشأت مساجلة بين الاثنين اتسع نطاقها باشتراك
علماء آخرين ، فلقيت وجهة نظر الاستاذ فازيلييف صدى استحسان
لدى المؤرخ الفرنسي لويس برييه (Bréhier) فاستخلص من دراسته
للمصادر اللاتينية ومن آراء فازيلييف والكونت دي ريان ان
شارلمان حصل من الرشيد على حماية الاراضي المقدسة (١١) وقد رأى
رأيه هذا كلينكلوز (١٢) وانتقده الاستاذ آينار جورنسن (١٣) فرد

(١٠) راجع كتاب الاستاذ بكلر الآنف الذكر ، الملحق الاول

ص ٤٧ .

(١١) تجد اراء المسيو لويس برييه في المقالين التاليين :

Louis Bréhier, "Les Origines des Rapports entre la France et la Syrie : le Protectorat de Charlemagne", *Chambre de Commerce de Marseilles : Congrès Français de la Syrie, Fasc. 2* (Marseilles et Paris, 1919).

_____ , "La Situation de Chrétiens de Palestine à la fin du 13e siècle et l'établissement du Protectorat de Charlemagne", *Moyen Age, Vol. XXI, 1919, PP. 67 - 75.*

(١٢) راجع مقال كلينكلوز « اسطورة حماية شارلمان للاراضي

المقدسة » :

A. Kleinclausz, "La Légende du Protectorat de Charlemagne sur la Terre Sainte", *Syria, Vol. VII, 1926, PP. 211 - 233.*

(١٣) راجع مقال الاستاذ جورنسن الآنف الذكر ص ٢٤١ - ٢٦١

على ذلك المسيو برييه في مقال عدل فيه نظريته في الحماية متأثراً من تحليل الاستاذ جورنسن لطبيعة الصلات بين الرشيد وشارلمان (١٤)

واخيراً جاء الاستاذ بككر (F. W. Buckler) (١٥) بنظرية جديدة ذهب فيها الى ان الصلات بين الرشيد وشارلمان اسفرت عن تعيين شارلمان امير فتح على اسبانيا ووالياً على القدس في ضمن الخلافة العباسية (١٦). وقد نقد هذه النظرية فريق من العلماء منهم الاستاذ جورنسن الذي فندها في مقال موجز قرظ فيه كتاب الاستاذ بككر (١٧).

أما باقي المراجع فدون هذه شأواً وهي على العموم لا تتعدى احد التصانيف المذكورة واغلبها تلخيص لوجهات النظر السابق

(١٤) راجع مقال المسيو برييه « شارلمان وفلسطين » :

Louis Bréhier, "Charlemagne et la Palestine", *Revue Historique*, Vol. CLVII, 1928, PP. 277 - 290.

(١٥) راجع كتاب الاستاذ بككر الآنف الذكر .

(١٦) بككر ص ٣٥ .

(١٧) راجع نقد الاستاذ جورنسن لكتاب الاستاذ بككر :

Einar Joranson, "F. W. Buckler, Harun'ul-Rashid and Charles The Great", *Speculum : A Journal of Medieval Studies*, Vol. VII, Jan. 1932, PP. 116 - 121.

ذكرها . منها مقال الاستاذ رنسيان « شارلمان وفلسطين » (١٨) الذي لخص فيه آراء من بحث عن الموضوع مع اضافات قليلة عنها . ونجد في العربية مقالا للسيد زهدي الداية عنوانه « هارون الرشيد وشارلمان : هل كانت بينهما علاقات ؟ » (١٩) ويلخص الكاتب في هذا المقال آراء كلينكلوز وبريه باقتضاب كثير . وللاستاذ محمد عبد الله عنان فصل في هذا الموضوع في كتابه « مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام » ولكنه شديد الاضطراب فهو يمزج بين اغراض وفود بطريق القدس ووفود شارلمان (٢٠)

—:٥:—

(١٨) راجع مقال الاستاذ رنسيان الآنف الذكر ص ٦٠٦ -

٠ ٦١٩

(١٩) راجع مجلة « الهلال » ، مايو سنة ١٩٣٢ ، ص ٩٦٨ -

٠ ٩٧٠

(٢٠) راجع «مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام» القاهرة :

مطبعة الجديد ، سنة ١٩٢٩ ، ص ٣٢ - ٣٨ .

الفصل الاول

الصلات الدبلوماسية بين العباسيين والفرنك

قبل عهد هرون الرشيد

١ - الوضع السياسي العالمي

في اوائل عمر الخلافة العباسية

في اليوم الحادي عشر من شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هجرية (٢٥ كانون الثاني سنة ٧٥٠ ميلادية) سار عبد الله بن علي (عم ابي العباس) من الكوفة ، وقد تسلم القيادة العليا للجيش العباسية ، متوجهاً نحو الشمال فالتقى بجيش الخليفة الأموي عند الزاب واشتبك الفريقان في معركة فاصلة ثل بها عبد الله بن علي عرش مروان آخر خلفاء بني أمية فانتقلت الخلافة من البيت الأموي إلى البيت العباسي .

وبعد نحو سنتين من هذا التاريخ (سنة ٧٥٢) كان بين (Pippin) القصير حاجب بلاط الملك شلريك الميروفنجي وجد من الضعف الشديد الذي حل ببيت الملك ما يسوغ اعتلاءه اريكة

الملك . فارسل وفداً إلى البابا يستفتيه فيمن يجب أن يكون ملكاً هل حامل لقب بلا قوة أو صاحب قوة بلا لقب ؟ وكان البابا حينئذ راعياً في قيام دولة قوية في الغرب يعتمد عليها في مقاومة القسطنطينية التي كانت خارجة على كنيسة روما ، فاجاب بان صاحب القوة يجب أن يحمل اللقب أيضاً . فاعلن بين من فوره اعتلاءه العرش وأرسل شلدريك الى دير ليمضي بقية حياته هناك . فانتقل الملك الى البيت الذي سمي بعد ذلك بالبيت الكارولنجي .

لقد كان لارتقاء البيتين العباسي والكارولنجي الى الحكم أثر خطير في تطور السياسة العالمية في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي . فالعداء القديم المستحكم بين الفرس والبيزنطيين على الحدود ورثته الدولة العباسية وظهر نزاعاً شديداً بين الخلافة العباسية والامبراطورية البيزنطية (١) . كما أن العلاقات السياسية بين الامبراطورية البيزنطية والفرنك في الغرب لم تكن ودية . وكان البابا يسعى دوماً لمنع التقرب بينهما . فلما حاول كل من الملك بين والامبراطور قسطنطين الخامس تسوية الاختلافات بينهما (سنة ٧٦٥) أرسل البابا بولس الاول

(١) ابتدأت المناوشات الحربية بين العباسيين والبيزنطيين منذ عهد المنصور ، وكان الخلفاء العباسيون اعتادوا تجريد الجيوش

كتابا الى بين يسأله أن يشترط في مفاوضاته مع قسطنطين أن تعترف القسطنطينية بافضلية الكنيسة البابوية وأن تحترم عبادة الصور المقدسة (٢) وقد أدى تدخل البابا هذا الى فشل المفاوضات وبقاء

لغزو الروم في الصيف وتسمى بالصوائف ، فكان الحلفاء ينتصرون طورا فيضطرون الامبراطرة الى دفع الجزية وطورا ينقض الامبراطرة العهد ويعبرون الحدود الى داخل الدولة العباسية . وقد حدث ذلك في عهد كل من المنصور والمهدي والرشيد ومن عقبهم من الحلفاء . راجع تطور هذه الحوادث في كتاب ابن الاثير : الكامل لناشره تورنبرغ (C. J. Torenberg) مطبعة ليدن ، سنة ١٨٧١ ، ج ٦ الصفحات ٢ و ٤٢ و ١٢٦ . وراجع ايضا الاستاذ محمد الحضري : محاضرات تاريخ الامم الاسلامية (الدولة العباسية) ، مطبعة دار احياء الكتب العربية بمصر ، سنة ١٩٢١ ، الصفحات ٨٩ و ١٠٤ - ١٠٥ و ١٤٥ - ١٤٩ . وايضا الفصل الخامس بقلم الاستاذ بروكس (E. W. Brooks) في النزاع بين العباسيين والبيزنطيين في كتاب تاريخ العصور المتوسطة لكمبردج (Cambridge Medieval History) لناشر الاستاذ تانر (J. R. Tanner) وآخرين ، ج ٤ ، مطبعة جامعة كمبردج ، سنة ١٩٢٧ ، ص ١١٩ وما بعدها . . .

(٢) لعبت قضية النزاع بين الكنيسة البيزنطية في الشرق والبابوية في روما دورا خطيرا ولا سيما اختلاف وجهتي نظرهما حول عبادة الصور والتماثيل المقدسة ، وحاول البابوات في جملة محاولاتهم ان يحلوا هذا النزاع بالاستعانة بالامبراطرة الفرنك ، ولكن النزاع لم ينته وتقلب في ادوار مختلفة في سلسلة النزاع بين البيزنطيين

العداء بين الكارولنجيين والبيزنطيين (٣) .

وكان في الوقت ذاته يسعى كل من بني العباس والفرنك أن يخضعوا أسبانيا ويضموها إلى ممتلكاتهم . فمن الوجهة الشرعية كانت اسبانيا جزءاً من « دار الاسلام » وكانت تابعة نظرياً للخليفة . أما عبد الرحمن الداخل فقد توصل إلى الحكم بالقوة ولم يعترف بسلطان الخليفة على اسبانيا ، فكان من هذه الوجهة خارجاً على الخليفة واعتبر هو واتباعه بغاة (٤) . وقد حاول المنصور عبثاً أن

والبابوية . راجع تفصيل هذا النزاع في الفصل الذي كتبه الاستاذ ديل (Charles Diehl) في الجزء الرابع من تاريخ العصور المتوسطة لكمبردج .

(٣) راجع كتاب الاستاذ بككر : «هرون الرشيد وشارل الكبير» ص ٧ - ٨ وعنوانه :

F. W. Buckler, *Harun'ul-Rashid And Charles the Great* (Cambridge, Mass., Medieval Academy of America, 1931) PP. 7 - 8.

(٤) للخليفة شرعاً السيادة العليا في دار الاسلام او العالم الاسلامي كافة ومن خرج على طاعته كان خارجاً او باغياً او محارباً قاطع طريق . راجع الماوردي : كتاب الاحكام السلطانية (مطبعة السعادة بمصر ، سنة ١٩٠٩) ص ٤٤ - ٤٥ . اما عبد الرحمن الداخل فلم يخرج على الدين ولكنه نبذ طاعة الخليفة في اسبانيا فكان باغياً -

ينحضع عبد الرحمن ويطلب اسبانيا الى حظيرة دار الاسلام ولكنه لم
ينجح . ففي سنة ٧٦٣ أمر المنصور والي القيروان العلاء بن مغيث
اليحصي أن يغزو اسبانيا ويقضي على عبد الرحمن بمساعدة المضرين
الذين كانوا مواليين للعباسيين^(٥) فركب العلاء البحر وسار باسطوله
الى أن نزل ثغر باجا (Beja) ، إلا أن عبد الرحمن هاجمه فوراً وقضى

وربما كان ابن خلدون الكاتب العربي الوحيد الذي جاء بفكرة امكان
وجود خليفتين في دار الاسلام ، وحجته في ذلك ان الدولة الاسلامية
اذا ما توسعت كثيرا واصبح امر الدفاع عنها صعبا وجب اقتسامها
بين خليفتين او اكثر ليسهل امر الدفاع عنها . راجع « المقدمة » ،
وتجد تحليل هذه الفكرة والدوافع للاخذ بها في كتاب الدكتور طه
حسين : « فلسفة ابن خلدون الاجتماعية » ، وقد ترجمه عن الفرنسية
محمد عبدالله عنان (مطبعة الاعتماد بمصر ، سنة ١٩٢٥) ص ١٣٣ -
١٣٥ .

(٥) كان في اسبانيا جبهتان الواحدة تناصر عبدالرحمن الداخل
وجلها من اليمانيين وبعض قبائل البربر ، والاخر^٥ مؤلفة من المضرين
ويرأسهم يوسف بن عبدالرحمن الفهري . وكان يوسف قد ترأس
الحكم واستبد بالامر دون ان يفسح المجال لليمانيين فلقيت دعوة عبد
الرحمن نصيرا منهم . فلما انقلب المضيرون على امرهم رحبوا بحملة
العلاء ليقتضوا على سلطة عبدالرحمن وعلى سيطرة اليمانيين . راجع
كتاب انيس النصولي : « الدولة الاموية في قرطبة » (المطبعة العصرية
ببغداد سنة ١٩٢٦) ج ١ ص ٤٤ - ٤٥ .

على حركته وقتل من ناصره من مقاوميه فحبطت الحملة في مهمتها .
ولما بلغ المنصور ماحل بحملة العلاء صرخ قائلاً : « الحمد لله الذي
جعل بيننا وبينه البحر ! » (٦) . وهكذا بقيت اسبانيا خارجة على
سلطان الخليفة وبقيت الصلات بين البيتين العباسي في بغداد والاموي
في قرطبة عدائية .

أما الفرنك فكانوا ايضاً يحاولون أن يمدوا نفوذهم الى ما وراء جبال
البرانيس وكانوا يمدون يد المساعدة الى المضربين على الحزب اليماني
الناصر لعبد الرحمن . إلا انه كان في جنوبي فرنسا قسم من الغول
الناقمين على الفرنك يساعدون البربر على الفرنك ويعرقلون مساعيهم .
وحدث ان زوج أحد أمراء الغول ، الكونت اودو (Eudo) ،
ابنته من زعيم بربري لتوثيق عرى الصداقة بين الغول والبربر . الا
ان الغول لم يتمكنوا من صد زحف الفرنك واستطاع بين اخيراً
(سنة ٧٥٩) ان يزحف جنوباً حتى استولى على ناربونة (٧) ولكنه
توقف عند هذا الحد طول مدة حكمه اذ شغلته البابوية بامور القسطنطينية

(١) راجع البحث في حملة العلاء بن مغيث في المقرئ : « نفع
الطيب » لناشره الدكتور احمد فريد رفاعي (مطبعة عيسى البابي بمصر ،
سنة ١٩٣٦) ج ٣ ص ٨٥ - ٨٩ .
(٧) راجع كتاب الاستاذ بكسر الـآنف الذكر ص ٦ - ٧ .

وهكذا بقيت اسبانيا آمنة غارات الفرنك الى ظهور شارلمان .
فترى من ذلك أن الوضع السياسي العالمي في عهد الخليفة
المنصور في الشرق والملك بين القصير في الغرب قد ساعد على انشطار
الدول آنئذ الى جبهتين . فمن الوجة الواحدة كانت الصلات بين
الدولتين المسيحيتين ، البيزنطية والفرنكية ، عدائية . وأيضاً كانت
الصلوات بين الدولتين الاسلاميتين ، العباسية والاموية في الاندلس ،
عدائية . ومن الوجة الأخرى ، كان كل من الدولتين العباسية
والبيزنطية في نزاع سياسى مستمر ، وكذلك الدولتان الاموية
والفرنكية كانتا في نزاع سياسى مستمر . وهذا ما جعل بالطبع اعداء
الأمويين والبيزنطيين ، وايضاً اعداء العباسيين والفرنك ، ذوي
مصالح مشتركة في عدائهم . وربما كانت هذه المصالح المشتركة لدى
كل من الجبهتين باعثاً على فتح المراسلات الدبلوماسية بين خلفاء بني
العباس والملوك الكارولنجيين .

٢ - الصلوات الربا وما طيفية

بين المنصور وبين القصير

في سنة ٧٦٥ ميلادية أوفد بين القصير وفداً الى بلاط الخليفة المنصور ثم عاد ذلك الوفد بعد ثلاث سنوات (حوالي أوائل سنة ٧٦٨) بطريق مارسيليا مصحوباً برسل من الخليفة حاملين هدايا الى الملك بين . ولا تذكر المصادر المعاصرة شيئاً عن مهمة هذا الوفد البتة ولا عما أسفرت عنه مفاوضاته مع الخليفة . وقد استقبل الفرنك رسل الخليفة بحفاوة وإكرام واعدت لهم مساكن لقضاء الشتاء في متز (Metz) وضرب لهم الملك بين موعداً للمقابلة الرسمية في ١٠ نيسان سنة ٧٦٨ في مدينة سيلس (Sellus) وهناك جرت مراسيم الترحيب بالوفد الذي قدم رسمياً هدايا الخليفة المنصور الى الملك بين القصير . ثم أمر بين أيضاً بتقديم هدايا الى الرسل العرب ليحملوها الى الخليفة وارسل وفداً يوصلهم الى مارسيليا حيث اقلتهم من هناك سفينة الى المشرق (٨) . والمصادر الفرنكية ساكتة عن تفاصيل

(٨) راجع مقال الاستاذ الدكتور آينار جورنسن : « المحمية

اخرى ولا سيما عن مهمة الوفد ، وهذا السكوت يخفي علينا اسراراً كثيرة متعلقة باغراض الصلات الدبلوماسية بين الفرنك والعباسيين ورنانا في مثل هذا الموقف غير قادرين على تفسير اغراض الوفد .
باعد من محاولة فتح صلات ودية بين الملك بين القصير والخليفة المنصور نظراً الى ما يحيط العاهلين من ظروف سياسية ومصالح مشتركة على البيزنطيين والامويين في الاندلس . ولا ريب في ان اتفاق الحوادث السياسية يدعم هذا الموقف في الوقت الذي ارسل بين رسله الى الشرق كانت الحرب دائرة رحاها بين البيزنطيين والعباسيين^(٩) ، وهذا ما يحملنا على ان نرجح تعليل الفكرة الى بدء الصلات الدبلوماسية على اساس اشتراك المصالح السياسية . ويرى الاستاذ بكثر (F. W. Buckler) ان العوامل التي شجعت الملك بين على ايتناد رسله الى المنصور هي سماعه بمحاولة الخليفة مد سلطانه الى اسبانيا ، ولما خاب المنصور في مساعيه حاول ان يتقرب منه لانه كان هو ايضا يسعى الى مد نفوذه الى اسبانيا . واشترك الهدف هذا

Einar Joranson, "The Alleged Frankish Protectorate in Palestine", *American Historical Review*, Vol. XXII (Jan 1927), P. 242.

(٩) راجع ابن الاثير : الكامل ، ج ٦ ص ١٠ .

في نظر الاستاذ بككر هو الذي دفعه الى ايفاد وفده سنة ٧٦٥ (اي بعد سنتين من محاولة المنصور الهجوم على اسبانيا بواسطة العلاء بن مغيث (١٠) . ويسترسل الاستاذ بككر في هذا الضرب من الاستنتاج فيذهب الى ان السياسة الدبلوماسية التي وضع منهاجها الملك بين مكنته من التوصل الى بغيته وهي تأليف سلسلة من المحالفات السياسية مع الخليفة المنصور والبابويه . اما البابا فقد اطلق يد الملك بين في مقاومة البيزنطيين ، واما الخليفة المنصور فانه ، على رأي الاستاذ بككر ، عين الملك بين امير فتح على اسبانيا خلفاً للعلاء بن مغيث (١١) .

بيد اننا اذا دققنا المصادر الفرنجية المعاصرة الفينا ان ما ذهب اليه الاستاذ بككر بعيد الاحتمال ، فالمصادر التي بين ايدينا الآن لا تذكر البتة شيئاً عن تفويض المنصور الى بين ولذلك لا يصح لنا موافقة الاستاذ بككر ، وكل ما تذكره هذه المصادر هو تبادل الرسل والهدايا وهذا لا يدل على أكثر من تأسيس صلات ودية بين المنصور وبين . أجل قد يكون من المحتمل انه جرت مفاوضات سياسية خطيرة ولكن المصادر لا تشير اليها البتة فلا يحق لنا ،

(١٠) راجع كتاب الاستاذ بككر الآنف الذكر ص ٩ .

(١١) راجع بككر ص ١٠ .

والحالة هذه ، ان نفترض ان المنصور قد عين بين امير فتح على اسبانيا . وهناك ايضاً محذورات شرعية تحذر تعيين بين امير فتح على اسبانيا سنأتي على ذكرها فيما بعد (١٢) .

وبعد مضي ثلاث سنوات على هذه الحملة (سنة ٧٦٨) توفي الملك بين القصير وتوقفت المراسلات الدبلوماسية بين العباسيين والفرنك مدة نحو ثلاثين سنة الى ظهور الامبراطور شارلمان الذي استأنف هذه المراسلات حين ارسل أول بعثاته إلى الخليفة الرشيد سنة ٧٩٧ .

الفصل الثاني

الصلات الدبلوماسية

بين هرون الرشيد وشارلمان

١ — سياسة شارلمان الخارجية

لسياسة شارلمان الخارجية صلة وثيقة باستئناف الصلات الدبلوماسية بين البلاطين العباسي والفرنكي . فصلة شارلمان بالبابوية وباسبانيا وتوتر العلاقات بينه وبين القسطنطينية دفعت بالامبراطور إلى انشاء الصلات الودية مرة اخرى بالخليفة العباسي .

اما صلات شارلمان بالبابوية فادت إلى تجديد توتر الصلات بينه وبين القسطنطينية . ذلك ان البابا كان يرمي حينئذ إلى توثيق صلاته ببطارقة القدس وانطاكية والاسكندرية . وتوصلا إلى ذلك شاركهم في الحركة الرامية إلى مقاومة عبادة الصور والتماثيل المقدسة التي كانت تناصر كنيسة القسطنطينية . وعداا البابوية هذا لامبراطرة القسطنطينية اهاب به إلى مناصرة الفرنك ودعم فكرة سيادتهم في الغرب . وهذا ما دفع البابا إلى تنويع شارلمان في روما

سنة ٨٠٠ ميلادية امبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة احياء للدولة الرومانية في الغرب حيث وجد من البيت الكروانجي طموحاً كافياً إلى إعادة مجد الامبراطورية الرومانية ومقاومة الامبراطورة البيزنطيين . إلا ان هذا العمل اثار سخط البيزنطيين في الشرق لانهم كانوا يعتبرون انفسهم احق في وراثة مجد الامبراطورية الرومانية من الملوك الكروانجيين . وهكذا بعث النزاع السياسي مرة أخرى بين الفرنك والبيزنطيين في عهد الامبراطور شارلمان .

اما في اسبانيا فاهاب النزاع الداخلي بشارلمان إلى التعرض لشؤونها ومحاولة ضمها إلى امبراطوريته . وكان آنئذ في اسبانيا احزاب ورجال يقاومون عبد الرحمن الداخل واشياعه وأخطر تلك العوامل الاتفاق المثلث الذي عقد بين سليمان بن يقطان العربي والي برشلونة وعبد الرحمن بن حبيب الفهري زعيم المضربين وابي الأسود بن يوسف الذي سجن عبد الرحمن اباه . وكانت الغاية المتوخاة من هذا الاتفاق المثلث القيام بثورة على سلطان عبد الرحمن الداخل وذلك بالاعتماد على البربر من الجنوب وعلى شارلمان من الشمال . وذهب بالفعل سليمان بن يقطان وابنه يوسف إلى شارلمان لمفاوضته في مدينة بادربورن (Paderborn) سنة ٧٧٧

ميلادية (١). وتم الاتفاق على اعلان الثورة ، فشرع عبد الرحمن بن حبيب الفهري الرايات السود داعياً إلى البيت العباسي . وفي سنة ٧٧٨ هـ هجم شارلمان على اسبانيا واستمر بالفتح حتى مدينة سر كوسا (Saragosa) ولكنه اضطر اخيراً الى الانسحاب نظراً إلى مقاومة عبد الرحمن من الجنوب والثورات الداخلية التي اثارها السكسون في شمالي مملكته . فخبطت سياسة الاتفاق المثلث بعد انسحاب شارلمان من جهة واعدم التكاتف المتواصل بين زعماء الثورة من جهة اخرى . وهكذا تمكن عبد الرحمن من قمع الثورة والقضاء على كل نائر على حدة (٢) .

ويرى الاستاذ بككر ان هذه مغامرة شارلمان الخائبة كانت

(١) راجع كتاب دوتزى « اسبانيا الاسلامية » ص ١٦٥

وعنوانه :

R. Dozy, *Spanish Islam : A History of the Moslems in Spain*, trans. by F.G. Stokes (London : Chatto and Windus, 1913) P. 165.

راجع ايضا كتاب انيس زكريا النصولى : « الدولة الاموية في

قرطبة » (بغداد : المكتبة العصرية ، سنة ١٩٢٦) ج ١ ص ٥٣ - ٥٤

(٢) راجع هوار : « تاريخ العرب » ج ٢ ص ١٤٧ وعنوانه :

Cl. Huart, *Histoire des Arabes* (Paris . Geuthner, 1913), Vol. II, P. 147.

راجع ايضا النصولى ، المصدر الآنف الذكر ، ج ١ ص ٥٥ .

الباعث بالذات له على استئناف الصلات الدبلوماسية بالعباسيين .
وهو يعتقد ان شارلمان شعر بان الرأي العام الاسلامي في اسبانيا
كان راغباً عن تعرض عاهل مسيحي لشؤون اسبانيا رغم الدعوة
التي تلقاها من رجال الاتفاق المثلث ، وهذا في نظر الاستاذ بكار
ما دفع شارلمان إلى التفكير باكتساب رضا خليفة المسلمين في بغداد
بتولي فتح اسبانيا (٣) .

٢ - تبادل الرسائل

بين شارلمان وحررون الرشيد

في أواخر القرن الثامن الميلادي كان ثمة بضعة عوامل ادت
بالذات إلى انشاء المراسلات الدبلوماسية بين شارلمان وحررون
الرشيد . ففي سنة ٧٩٧ ميلادية كان والي برشلونة اتفق مع شارلمان
على تسليمه المدينة ، وقد تكون هذه الحادثة قد ذكرت شارلمان

(٣) راجع بكار « حررون الرشيد وشارل الكبير » ص ١٢

بحنية مساعيه سنة ٧٧٨ فرأى ضرورة السير على طريق سلمة
للفوذ إلى اسبانيا وذلك بنيل رضا الخليفة في بغداد^(٤) . وكان
العداء مستحكماً ايضاً بين القسطنطينية وآخن (عاصمة شارلمان)
وكان البيزنطيون ينصبون المكائد لشارلمان في جنوبي اسبانيا ،
وربما كانت هذه الحادثة انشأت في رأس شارلمان فكرة التعاون
مع هرون الرشيد على مقاومة البيزنطيين . وكان الخليفة في واقع
الامر في نزاع مع ايريني امبراطورة البيزنطيين فقهرها الرشيد
وارغمها على دفع الجزية . اضيف الى ذلك ان بعض حوادث اسبانيا
ربما كانت اثارت خواطر الخليفة في بغداد . ففي هذه الآونة كان
تأسس المذهب المالكي في المشرق ، واتهم الامام مالك ابن أنس
مؤسس هذا المذهب بمساعدته دعاة العلوية فجلد وسجن ، فقرر مالك
الرحيل من بغداد إلى المدينة ولقي هناك علماء قصدوا الحج من
قرطبة فاغروه بالمسير معهم الى اسبانيا ففعل^(٥) وصرح مالك

(٤) يرى الاستاذ بككر ان والى برشلونة اقترح عليه سلوك
هذه الطريق توسلاً للفوذ في اسبانيا . راجع كتابه الآنف الذكر
ص ٢٠ .

(٥) راجع كتاب ابن خلكان : « وفيات الاعيان » ج ١
ص ٤٣٩ . وكتاب انيس زكريا النصولي : « الدولة الاموية في
قرطبة » ج ١ ص ٦٢ .

في اسبانيا بمدحه لهشام ، و اقر له بالكفاءة في الحكم بما لا يتفق
ومركز الخليفة السياسي في بغداد (٦) .

كل هذه الظروف ساعدت على اشتراك المصالح بين الرشيد
وشارلمان وقربت بينهما بصفة كونهما عاهلين لهما سياسة خارجية
متفقة . وهذه المصالح هي التي دفعت بشارلمان الى انشاء المراسلات
الدبلوماسية بين آخن وبغداد .

ففي سنة ٧٩٧ ميلادية اوفد شارلمان وفداً مؤلفاً من ثلاثة
رجال ، كان اثنان منهم من الفرنك وهما السفيران لاننفريد
(Lantfrid) وسيكيმوند (Sigimund) وثالث وهو مترجم
يهودي اسمه اسحق . ولا تذكر المصادر اللاتينية مهمة هذا
الوفد ولا شيئاً واضحاً عنه ما خلا الحصول على فيل (٧) ، والواقع
ان المترجم اسحق جلب معه فيلا الى بلاط شارلمان . وتذكر المصادر
ايضاً ان الوفد مكث في الشرق ثلاث سنوات وان السفيرين
لاننفريد وسيكيموند توفيا في الشرق ورجع اخيراً المترجم اسحق مع

(٦) راجع بـكلر ، الكتاب الآنف الذكر ، ص ١٨ ،

ودوتري الكتاب الآنف الذكر ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

(٧) راجع كتاب آينهارد « سيرة شارل » لناشره هلفن ص

٤٨ وعنوانه :

Einhard, *Vita Caroli* (ed. Halphen; Paris, 1913), P. 48.

الفيل . اما هل اتصل حقيقة السفيران بالخليفة وهل جرت مفاوضات سياسية فهذه نقاط قد اختلف فيها الباحثون . فالمؤرخ الفرنسي المسيو برييه (Bréhier) يذهب الى ان آينهارد المؤرخ الفرنسي يشير الى كون « مسألة حماية المسيحيين في فلسطين تم البحث فيها بالذات بين الخليفة وسفراء شارلمان (٨) » . والاستاذ بككر يقرر ان المفاوضات حدثت ولكن موضوع البحث ليس واضحا في المصادر الاصلية (٩) . اما الاستاذ جورنسن فينفي حدوث مثل هذه المفاوضات ، فهو يقول ان آينهارد لم يذكر شيئا عن ذلك (١٠) ولا يوجد دليل ما يثبت ان شارلمان كان على اتصال بسفرائه بعد مغادرتهم الغرب سنة ٧٩٧ . والرجح انه كان يجهل الجبل كله ما حدث لهم في الشرق بعد مغادرتهم بلاطه الى ان وصلته اناؤهم

(٨) راجع مقال المسيو برييه « اصول العلاقات بين فرنسا وسورية : محمية شارلمان » في مجلة غرفة تجارة مارسيليا للسنة ١٩١٩ ص ٢٨ - ٢٩ ، وعنوانها :

L. Bréhier, "Les Origines des Rapports entre la France et la Syrie : le Protectorat de Charlemagne," *Chambre de Commerce de Marseilles : Congrès Français de la Syrie, Séance et Travaux*, fasc. II. Section d'Archeologie etc. , (Marseilles, 1919) , PP. 28 - 29.

(٩) بككر ، المصدر الآنف الذكر ، ص ٢٣ وما بعد .
(١٠) راجع مقال الاستاذ جورنسن الآنف الذكر ، حاشية

بواسطة سفيرين من المسلمين سنة ٨٠١ . وهذان السفيران احدهما فارسي وهو رسول من الخليفة هرون والآخر من افريقيا يمثل ابراهيم بن الاغلب امير القيروان . وقد أوفد شارلمان من يستقبل هذا الوفد ولما مثل بين يديه اخبره بان اسحق عائد في طريقه وقد جلب معه فيلاً وهدايا اخرى ، اما السفيران فقد توفيا . ووصل اسحق الى ايطاليا في تشرين الاول سنة ٨٠١ ولم يحظ بالمثل امام شارلمان الى تموز سنة ٨٠٢ اذ قدم الى الامبراطور الفيل ، وكان اسمه ابا العباس ، وهدايا اخرى (١١) .

(١١) تذكر الاخبار الملكية قصة الفيل ووصوله الى شارلمان وتذكر ايضا بقاءه في بلاطه حتى توفي سنة ٨١٠ . ويذكر آينهارد ان الخليفة ارسل فيله الاوحد هدية الى شارلمان . اما بارتولد فيذهب الى ان اسحق جلب الفيل من الهند بموافقة الخليفة ، لان تجارة الفيلة (على قول فازيليف) كانت محتكرة من قبل الخليفة . وهذه الآراء تحتاج الى اثبات . والمعول عليه من الآراء ان الفيل كان هدية من الخليفة وقد يكون أتى به من الهند . اما قول البعض ان شارلمان أتى به من شمالي افريقيا فهو بعيد الاحتمال لان المسعودي يروي في مروجه ان الفيلة اختفت من شمالي افريقيا في القرن السابع الميلادي . راجع تفاصيل اخرى حول الفيل في الملحق الثالث من كتاب الاستاذ بككر الآنف الذكر في الصفحات ٥١ - ٥٢ . ويجدر بالذكر هنا ان الاستاذ محمد عبدالله عنان قرأ اسم الفيل « بولاباس » خطأ في المصادر الاجنبية

وهنا يتبادر إلى الذهن بضعة أسئلة عن مهمة وفد الرشيد إلى شارلمان :

(أولا) هل ذهب هذا الوفد الى شارلمان لرد زيارة وفد شارلمان اليه فقط ؟

(ثانياً) هلفاوض هذا الوفد شارلمان لتأليف حلف سياسي او لمنح شارلمان حقوقاً في فلسطين او اسبانيا ؟

وقد يكون من الطرافة بمكان ان نشير اولاً الى الرحلة التي صورتها مخيلة الاستاذ جميل نخلة المدور في كتابه « حضارة الاسلام في دار السلام » اذ يعالج فيها رحلة رسول الخليفة هرون الرشيد الى شارلمان ومهمته السياسية (١٢). وقصة الاستاذ المدور تذكر ان الخليفة هرون الرشيد استدعى رسولا وقال له : « انا اتانا من ملك الفرنجة رسول يقرئنا منه السلام فرأينا ان نوجهك اليه بالطاف تروم اليه ان يتقبلها في سبيل المودة لغاية نرغب فيها اليه من التعصب على

والصحيح هو « ابو العباس » . راجع كتاب الاستاذ محمد عبدالله عنان « مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام » (القاهرة : مطبعة الجديد ، سنة ١٩٢٩) ، حاشية ص ٣٤ .

(١٢) راجع جميل نخلة المدور : « حضارة الاسلام في دار السلام » (القاهرة : مطبعة المقتطف ، سنة ١٨٨٨) ص ٢٦٦ وما بعد .

بني امية الذين يمزقون الاندلس فيما هو واقع بينهم من الحروب .
 فاذا وافقنا على مانروم من الاستيلاء على ديارهم فهو المقصود من
 انفاذك اليه واجهد بان تسترق له بخلاصة لسانك وتقدم اليه بالوعد
 الجليل في اننا نوفيه حقه يوم الفتح ونصرف اليه نفقة الحرب من
 بيت مالنا ونجري الارزاق الواسعة على جنده وتقاسمه ما تحوي
 خزائن الظالمين من المال والجوهر... (١٣) »

فلاستاذ المدور يصور الغرض من الرحلة الاتفاق مع شارلمان
 على غزو اسبانيا والقضاء على سلطة الامويين ثم مقاسمته ما تحوي
 البلاد من ثروة (١٤) . ويسترسل الاستاذ المدور في القصة فيذكر ان
 الرسول توجه الى الشام ثم يبروت ومنها ركب البحر الى ان نزل

(١٣) جميل نخلة المدور ، المصدر الآنف الذكر ، ص ٢٦٦ -

٢٦٧ .

(١٤) ويذكر الاستاذ المدور ان جعفر البرمكي كان على غير
 رأى الخليفة في مقاومة الامويين في الاندلس ، وان جعفر اخبر الرسول
 بانه اشار على الخليفة « ان يقلع عن مناجزة الامويين اذ لنا في المشرق
 ما يشغلنا عن قتالهم ... فما لنا والامويين وقد كفانا الله شرهم
 فان يكونوا في شقاق فلندعهم ينادون بالويل والحرب الى ما وراء البحور
 وليس لنا ان نلقى برجالنا في المواضع المجحفة ... » . المدور ،
 المصدر الآنف الذكر ، ص ٢٦٧ - ٢٦٨ . ولا ريب ان رواية
 المدور هذه لا يدعمها رواية عربية او فرنجية .

مدينة مرشيلية (مارسيليا) فاخبره اميرها ان الانبرذور
(الامبراطور) كان في روما فتوجه الرسول اليه هناك (١٥). وفي
روما استقبله الامبراطور وسأله عن المشرق « وانه يروم ان يكون
الدهر في صفاء للرشد (١٦) ». ويقول الرسول انه اجابه بتحفظ
عن امر امية وسأله ان يأذن له في الدخول عليه « في خلوة وانفراد
فاجابني الى ذلك وهو يظهر ائتناسه بي ونوسمه الخير مما وقع بينه وبين
الرشد من التواد (١٧) » ثم يضيف : « ولما كان الغد استدعاني
القيصر ... فلما امر لي بالجلوس بلغته ما اوصاني به الرشد من امر
امية وما يروم من موافقته عليهم ولكن بايجاز ... فخطبني بما في
معناه (١٨) ». فالاستاذ المدور يذكر بشيء من الغموض ان اتفاقاً
تم بين الرشد وشارلمان على فتح اسبانيا وتفويض شارلمان بتنفيذ هذه
المهمة . ويوافق الاستاذ بككر الاستاذ المدور في رأيه هذا فيما يتعلق
باسبانيا (١٩)، ويقرر ان الرشد عين شارلمان امير فتح على اسبانيا

(١٥) المدور ، المصدر الآنف الذكر ، ص ٢٩٨ .

(١٦) المدور ، ص ٣٠٠ .

(١٧) المدور ، ص ٣٠٠ .

(١٨) المدور ، ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ .

(١٩) راجع بككر ، المصدر الآنف الذكر ، ص ٢٥ .

لانجاز هذه المهمة (٢٠). ويسترسل الاستاذ بككر في شرح رأيه ويدعمه بقوله ان توارد الحوادث يثبت حصول هذا الاتفاق على اسبانيا ، لأن مساعي شارلمان في التعرض لشؤون اسبانيا لقيت نجاحا بعد مفاوضات رسل شارلمان ، وهو يعلل ذلك بقوله ان المسلمين في اسبانيا وافريقيا اعتبروا شارلمان حليف الخليفة فناصروه . ويرى بككر ان هذا الاتفاق ايضا هو الذي سهل على شارلمان الاستيلاء على برشلونه سنة ٨٠٢ بعد حصار سنتين رغم محاولات قرطبة الاحتفاظ بها ، وتمكن شارلمان من الاستيلاء على بقاع اخرى في شمالي اسبانيا واذعن له قسم من العرب (٢١). ويدكر الاستاذ بككر ايضا ان التفويض الذي حصل عليه شارلمان أشير اليه في مراسلات بين البابا وشارلمان (٢٢).

ويضيف الاستاذ بككر الى هذا الغرض من المفاوضات بين الرشيد وشارلمان غرضين آخرين وهما الاتفاق على البيزنطيين وتسهيل طريق الحج للافرنج الى الاراضي المقدسة . وسنتناول نقد هذين الغرضين حين البحث في نظرية الاستاذ بككر (٢٣).

(٢٠) بككر ، ص ٢٣ - ٢٥ .

(٢١) بككر ، ص ٢٣ .

(٢٢) بككر ، ص ٢٦ - ٢٧ .

(٢٣) راجع الفصل الثالث من هذا الكتاب ، القسم الثالث .

٣ - تبادل الرسائل بين شارلمان

وبطريق القدس

في الوقت الذي اوفد فيه شارلمان وفداً الى بلاط هرون الرشيد تبودلت مراسلات ايضاً بينه وبين بطريق القدس . ويجب ان نؤكد ان الذي فتح هذه المراسلات هو البطريق . ففي اواخر سنة ٧٩٩ ميلادية وصل الى آخن (اكس لاشابل) رسول من البطريق يحمل الى شارلمان هباني وهدايا رمزية . وبعد ان اقام الرسول برهة قصيرة عاد يحمل هدايا من الامبراطور الى البطريق وقد صحبه كاهن من بلاط شارلمان اسمه زكريا بمنزلة رسول رسمي من الامبراطور الى البطريق . ولا تذكر المصادر الاصلية شيئاً من غرض هذه المراسلات .

وفي ٢٣ كانون الاول سنة ٨٠٠ عاد زكريا الى روما حيث كان يقيم شارلمان حينئذ يصحبه راهبان . وجلب معه هدايا رمزية كمفاتيح كنيسة القيامة وراية . ولا تذكر المصادر المعاصرة معنى هذه الهدايا ولا سيما المفاتيح والراية . إلا ان بعض الكتاب يذهبون الى ان البطريق قدمها الى الامبراطور رمزاً الى طلب حمايته . وهذه

هي نظرية المسيو برييه وكليנקلوز على ما سند كره . ويستند هؤلاء الكتاب في تفسيرهم الى عمل مشابه لهذا قام به كل من البابا غريغوريوس الثالث وليو الثالث في ظروف سابقة . إلا ان الاستاذ رنسيان Runciman يحمل تقديم هدايا البطريق على غير هذا المحمل فهو يذهب الى ان البطارقة كانوا يمنحون مثل هذه الهدايا تقديرًا لبعض الناس البارزين دون ان ينطوي ذلك على معنى سياسي (٢٤) .

ولنتساءل الآن هل كان لبعثة البطريق صلة بوفد الخليفة هرون الرشيد الى شارلمان ؟

يعتقد المسيو برييه ان وفد شارلمان الاول (وفد سنة ٧٩٧) مر بالقدس في طريقه الى بغداد ، إلا ان المصادر الاصلية لا تذكر شيئاً بشأن ذلك . أما آينهارد فيقرر ان الوفود الاخرى مرت بالقدس ولكنه لا يقول ذلك بشأن وفد سنة ٧٩٧ . أما اذا نظرنا الى المسألة نظر المسيو برييه ، اي ان تقديم مفاتيح كنيسة القيامة كان رمزاً

(٢٤) راجع مقال الاستاذ رنسيان : « شارلمان وفلسطين »

في مجلة التاريخ الانكليزية المجلد ٥٠ ص ٦١٠ ، وعنوانها بالانكليزية كما يلي :

Steven Runciman, "Charlemagne and Palestine",
English Historical Review, Vol. L (Oct. 1935), P. 610.

الى طلب الحماية ، فان البطريق يجب ان يكون قد اتصل اولاً بالخليفة للحصول على موافقته على القضية . إلا أن المصادر لا تمكننا من هذا الاستنتاج وان مجرد تقديم الهدايا لا يعني هذا الغرض . فمن الصعب إذن ان نعتبر بعثة البطريق الى شارلمان ذات صلة بوفد الخليفة اليه . ومن المحتمل كثيراً ان يكون البطريق سمع بالصلات الودية بين الخليفة والامبراطور ولكن ذلك لا يعني بالطبع ان البطريق ارسل وفده بناء على اتفاق سابق مع الخليفة .

٤ — وفود شارلمان الاخرى

الى الرشيد

٢

في السنة التي اوصل فيها اسحق الفيل ابا العباس الى بلاط شارلمان (سنة ٨٠٢) ارسل الامبراطور وفداً ثانياً الى بلاط الخليفة هرون الرشيد . وكان اسم احد السفراء رادبرت (Radbert) . ولا تشير المصادر الاصلية سوى اشارة بسيطة الى هذا الوفد . فلا نكاد نعثر في « الاخبار الملكية » على اكثر من ذكر هذا الوفد . أما آينهارد فيقرر ان الوفد مر في طريقه بالاراضي المقدسة ثم سار الى بلاط الخليفة في بغداد ، وان السفراء « عرضوا عليه (على الرشيد) رغبات

سيدهم ، وأنه فضلاً عن موافقته على ذلك سمح أيضاً ببسط سيطرته (سيطرة شارلمان) على الاماكن المقدسة » (٢٥) .

ويلاحظ على هذه العبارة أنها شديدة الغموض فهي لا تبين ماذا كان ذلك الغرض ، وأما تشير الى ان الرشيد منح ما طلبه شارلمان على لسان سفرائه . هذا وان تاريخية العبارة تتوقف ايضاً على مدى دقة اينهارد في روايته . وقد بين المسيو هلفن (Halphen) بأن آينهارد مع انه كان في موقف يساعده على معرفة المراسلات الدبلوماسية هذه إلا أنه كتب هذه الحوادث متأخرة عن زمنها كما انه يوجد في كتابه اخطاء كثيرة في سيرة شارلمان (٢٦) . وبناء على ذلك من الصعب التعويل على صحة هذه العبارة (٢٧) .

(٢٥) راجع كتاب آينهارد : « حياة شارل » ، ص ٤٦ - ٤٨ وعنوانه :

Einhard, *Vita Caroli* (ed. by Halphen) pp. 46 - 48.

(٢٦) راجع كتاب هلفن : « دراسات انتقادية لتاريخ شارلمان » ص ٨١ وعنوانه :

L. Halphen, *Etudes Critiques sur l'Histoire de Charlemagne* (Paris : Félix Alcan, 1921), p. 81.

(٢٧) يحاول الاستاذ رنسيومان تفسير الغرض بانه ربما كان طلب وضع كنيسة القديسة مريم قيد تصرف الرهبان اللاتين اذ تم ذلك بالفعل فيما بعد . راجع مقال رنسيومان الآنف الذكر ص ٦١٢ - ٦١٣ .

وصلت البعثة الى اوروبا سنة ٨٠٦ (اي بعد مضي اربع سنوات)
في زمن كان الاسطول البيزنطي اعلن الحصار البحري على ساحل
الادرياتيك الشمالي إلا ان السفراء تمكنوا من المرور رغم الحصار .
وتوفي رادبرت بعد سنة من وصول البعثة الى اوروبا .

وفي الزمن الذي كان سفراء سنة ٨٠٢ في الشرق اوفد البطريق
جرجس راهبين الى شارلمان فوصلا اليه سنة ٨٠٣ وكان حينئذ في
مدينة سالتز (Salz) الواقعة على نهر ساله (Saale) واقام الرسل
عند شارلمان الى تشرين الاول سنة ٨٠٣ بدليل انهما ذهبا
معه الى مدينة سالتزبرغ (Salzburg) في بافاريا . ولا نخبرنا
المصادر شيئاً اكثر من هذا عن الوفد .

وفي اوائل سنة ٨٠٧ وصل الى بلاط شارلمان ثلاثة سفراء يسمى
احدهم عبد الله ، وكان رسول الخليفة ، وراهبان من بطريق القدس
توما اسماهما جورج وفيلكس (Felix) (٢٨) . وربما كان الوفدان
أما سافرا معاً وأما انهما وصلا الى آخن في وقت واحد . اما
آينهارد فيذكر ان الخليفة مهد الطريق لكي يتصل الوفدان احدهما

(٢٨) الراهب جورج اصله الماني واسمه الكامل (Abbot George)

وكان اسمه الاول اكيلبالد (Egilbald) . راجع حاشية مقال

الاستاذ جورنسن الانف الذكر ص ٢٥٣ .

بالآخر حين الوصول الى بلاط شارلمان . إلا انه ما من دليل يثبت ان الخليفة قد فعل ذلك (٢٩) . وقد حمل رسول الخليفة الى شارلمان هدايا ثمينة منها صيوان ملون بالوان متنوعة جميلة ومنسوجات من الحرير والكتان وروائح عطرية وبلسم وساعة مائية واواني نحاسية كبيرة (٣٠) . وقد اقام السفراء الثلاثة عند الامبراطور مدة ثم ارسلوا

(٢٩) يذهب الاستاذ رنسيमान الى ان التقاء الوفدين في بلاط شارلمان كان على سبيل الاتفاق ولم يكن مقصودا . راجع رأيه في مقاله الآنف الذكر ص ٦١٣ . راجع ايضا مقال الاستاذ جورنسن ص ٢٥٣ .

(٣٠) يذكر الاستاذ بككر ان دليلا واحدا لا يزال موجودا على صحة ارسال هذه الهدايا ولكن الاستاذ بككر لا يعتبر ذلك دليلا جازما . وهذا الدليل هو وجود قطعة من هدايا الرشيد ، او المعدودة من هدايا الرشيد ، في مكتبة عميد كاتدرائية درم (Durham) . وقصة وجودها في هذه المكتبة طريفة وهي انه بعد اضمحلال امبراطورية شارلمان سنة ٨٨٨ ميلادية بقيت هدايا الرشيد عند دوقات فرنسا ، فلما خطب الدوق هيو (Hugh) اخت الملك اثلستن (Aethlestan) واسمها اتلدا (Aethelda) ، ارسل بعض هذه الهدايا الى ذلك الملك الانكليزي . وبعد اثنتي عشرة سنة من هذا التاريخ اهدى الملك قسما من هذه الهدايا الى دير القديس كثبرت (Cuthbert) . ثم تخرب هذا الدير في السنة ١١٠٤ فأخذ الرهبان بعض آثاره النفيسة واحتفظوا بها ومنها هذه الهدية . الا انه اتلف بعضها سنة ١٨٢٧

الى ايطاليا حيث ابجروا من هنالك الى المشرق .

—————:٥:—————

ولم يبق منها سوى قطعة صغيرة مكتوب عليها العبارة : « لا اله الا الله » وهى المحفوظة الآن فى كاتدرائية درم . راجع تفصيل هذه القصة فى كتاب الاستاذ بكلر الآنف الذكر ، حاشية ص ٤٤ ، والملحق الرابع لهذا الكتاب ذاته ص ٥٣ - ٥٦ . راجع ايضا مقال الاستاذ جورنسن الآنف الذكر ص ٢٥٣ .

الفصل الثالث

نظريات في تعليل طبيعة الصلات الدبلوماسية

بين العباسيين والفرنك

لقد عكف بعض الكتاب الغربيين على درس طبيعة الصلات الدبلوماسية بين هرون الرشيد وشارلمان وذهبوا مذاهب مختلفة في تعليل المركز القانوني الذي اسفرت عنه المفاوضات المزعومة بين العاهلين . وسنتناول فيما يلي تلخيص أكثر هذه النظريات خطورة وما أثارته من مساجلة بين الكتاب مع كلمة عامة في نقدها وتقديرها .

١ — نظرية الميسر برييه

تدور نظرية الميسو لويس برييه حول وضع الاراضي المقدسة بما يسمى « تحت الحماية » ، فهو يقرر ان المراسلات بين الرشيد وشارلمان اسفرت عن اعتراف الرشيد بحق حمايته للاراضي المقدسة . وهو يستنتج ذلك من رواية آينهارد التي اتينا على ذكرها والتي تنص على ان ما طلبه رسل شارلمان (دون ان تذكر المصادر نوع

(الطلب) كان في نظر المسيو برييه حماية الاراضي المقدسة وقد وافق على ذلك الرشيد . كما ان ارسال البطريق مفاتيح كنيسة القيامة (وحدث ذلك في نظر المسيو برييه بعد موافقة الخليفة) معناه تقديم الطاعة الى حامي الاراضي المقدسة (١) .

ويستند المسيو برييه ايضاً في وضع نظريته الى اعمال قام بها شارلمان بصفة كونه حامي الاراضي المقدسة وهي :
(اولا) ان شارلمان بدأ بارسال اعانات ومساعدات مالية إلى الاراضي المقدسة ولا سيما عضد القيام بانشاء كنائس ودار للضيافة ومكتبة .

(ثانياً) ان شارلمان فصل في مساجلة دينية نشأت بين الرهبان في القدس ، فاحيلت المساجلة عليه بصفة كونه حامي الاراضي المقدسة .

(١) راجع تفصيل هذه النظرية في مقال المسيو برييه : « اصول العلاقات بين فرنسا وسورية : محمية شارلمان » في مجلة غرفة تجارة مارسيليا ، وعنوانها :

Louis Bréhier, "Les Origines des Rapports entre la France et la Syrie : le Protectorat de Charlemagne", *Chambre de Commerce de Marseilles : Congrès Français de la Syrie, Séances et Travaux*, Fasc. II. (Marseilles, 1919), pp. 28 ff.

ويرى المسيو برييه ان هذه ادلة قاطعة على اثبات اعتراف
الرشد بحماية شارلمان للاراضي المقدسة (٢) . وهو يذهب الى ان
هذه الحماية بقيت للملوك الفرنك مدة قرنين بعد موت الامبراطور
شارلمان .

٢ - نقد الادعاء من النظرية المسيو برييه

وقد انبرى الدكتور آينار جورنسن، الاستاذ بجامعة شيكاغو،
لنقد هذه النظرية . فهو يقول ان المصادر الأولى لا تذكر غرض
الوفد الأول (وفد سنة ٧٩٧) ولا ما جرى من المفاوضات في
بغداد حتى انها لا تذكر شيئاً عن رجوعه (٣) .

اما دليل ارسال المفاتيح والراية إلى شارلمان فلاستاذ

(٢) راجع اراء كلينكلوز الماثلة لهذه النظرية ويمكن تصنيفها
مع نظريات الفريق المؤيد لنظرية الحماية في مقاله : « اسطورة محمية
شارلمان في الاراضي المقدسة » وعنوانها :

A. Kleinclausz, "La Légende du Protectorat de Charlemagne
sur la Terre Sainte", Syria, Vol. VII. (1926), PP. 211 - 233.

(٣) راجع مقال الاستاذ جورنسن : « المحمية الفرنكية المزعومة

في فلسطين » وعنوانها :

Einar Joranson, "The Alleged Frankish Protectorate in
Palestine", American Historical Review, Vol XXXII. (Jan.
1927), P. 244.

جورنسن لا يراه دليلاً مقنعاً . لأن الميسو برييه يستند في تفسيره إلى حادثين شبيهين بذلك حدثا من قبل البابوين غريغوريوس الثالث وليو الثالث في عهد سابق لعهد بطريق القدس (٤) . أما الاستاذ جورنسن فيرى ان مقابلة اعمال متشابهة في الحوادث التاريخية لا يصح اعتبارها دليلاً ، لأن المقابلة كثيراً ما تؤدي الى تشويه وجه الحقائق لا إلى التفسير ، فالتشابه الظاهر بين حادث وآخر قد يجعلنا نؤكد وجوه التشابه أكثر مما نؤكد وجوه الاختلاف وبذلك نزيد في غموض ما نريد ايضاحه . كما ان بين الحادثين فارقاً كبيراً في الظروف وفي الزمن فلا تصح المقابلة (٥) .

ثم يفند الأستاذ جورنسن ادلة الميسو برييه الأخرى وهي

(٤) كان كل من غريغوريوس الثالث وليو الثالث قدم مفاتيح إلى شارل مارتل وبين القصير طالبا الحماية . والظروف السياسية هي التي دفعتهما إلى ذلك ولا سيما فيما يتعلق بالاختلافات مع الدولة البيزنطية في الشرق .

(٥) راجع جورنسن ، المصدر الآنف الذكر ، ص ٢٢٧ - ٢٤٨ . والواقع ان الميسو برييه لا يقول ان تقديم المفاتيح والراية كان بعد ذاته عملاً مؤدياً إلى الحماية بل كان فاتحة للمفاوضات التي تمت بمراسلات أخرى ولا سيما فيما يتعلق بوفد شارلمان لسنة ٨٠٢ (راجع مقال برييه الآنف الذكر ص ٢٨) ، وهو يستند إلى رواية آينهارد . اما الاستاذ جورنسن فلا يرى في آينهارد ما يسوغ هذا الاستنتاج (راجع مقال الاستاذ جورنسن ، حاشية ص ٢٥٠) .

المساعدات المالية وانشاء المعاهد الدينية (كالكنائس ودار الضيافة والمكتبة) في القدس . والاستاذ جورنسن لا ينكر ارسال الاعانات ، فهو يتفق وآينهارد على ان شارلمان كان يبعث بها وذلك ليس إلى فلسطين فحسب بل إلى الاسكندرية وقرطاجة ايضاً . ولكنه لا يتفق مع المسيو برييه على تشييد كنائس جديدة ، لأنه يرى ان المصادر الاولى لا تذكر غير ترميم بعض كنائس قديمة وهذا لا يعني ان الامبراطور قام بحركة انشاء معاهد دينية . وتنحصر جملة ما يراه الاستاذ جورنسن فيما يلي :

(اولاً) ان شارلمان ارسل اعانت مالية وقد يكون انفق بعضها على ترميم بعض الكنائس القديمة .
(ثانياً) من المحتمل انه انفق على بناء دار للضيافة أصبحت تعرف بأسمه فيما بعد .

(ثالثاً) من المحتمل انه انشأ مكتبة ذكرها فيما بعد راهب زار الأراضي المقدسة .

بيد ان كل هذا لا يعني وضع الأراضي المقدسة قيد « حماية »
الامبراطور شارلمان (٦) . أجل قد يؤدي ذلك إلى انشاء صلات

ودية مع الخليفة هرون الرشيد ولكننا نجد فرقاً كبيراً بين الحماية Protection وبين الصلات الودية بين عاهلين (٧) . والواقع ان آينهارد يشير إلى ان شارلمان كان يسعى للحصول على صداقة الملوك فيما وراء البحار ولكن ذلك لا يعني بسط حمايته على ممتلكات أولئك الملوك (٨) .

(٧) يجب ان نلاحظ ان الميسو برييه في استعماله التعبير « حماية » يطبق تعبيراً في القانون الدولي الحديث على وضع يتعلق بامور القرون الوسطى . فالحماية تعنى الآن ان دولة تمارس كل مظاهر السيادة الخارجية الهامة لدولة اخرى بينما الادارة الداخلية تترك للدولة المحمية لممارستها . وهذا بالطبع غير ما يقصده الميسو برييه من تعبيره . اذ حماية شارلمان في نظر الميسو برييه شملت الادارة الداخلية فيما يخص القيام ببناء بعض المعاهد الدينية او فصل بعض الامور الداخلية الاخرى . ولذا فالميسو برييه يستعمل تعبيراً في القانون الدولي الحديث على غير معناه الصحيح في وضع سابق لتطبيق نفس هذا التعبير . راجع عن تعريف وشرح معنى الحماية كتاب لورنس : « مبادئ القانون الدولي » وعنوانه :

T. J. Lawrence, *Principles of International Law*, ed. P. H. Winfield (Boston : D. C. Heath & Co. , 7ed. , 1923), P. 56.

L. Oppenheim, *International Law*, ed. by H. Lauterpacht (London : Longmans, Green and Co. , 5th. ed. , 1937) , Vol. I, pp. 168 - 173.

(٨) راجع جورنسن ، المصدر الآنف الذكر ، حاشية ص ٢٥٥ .

واخير يفند الأستاذ جورنسن قضية الفصل في المساجلة الدينية فهو اولا يقرر ان هذه المساجلة احيلت على البابا ليو الثالث لا على شارلمان ، وانما الاشارة الى شارلمان جاءت عرضاً بمنزلة تأييد لوجهة نظر راهب لا لعرض المسألة عليه . وبناء على ذلك لا يصح اتخاذ هذا الحادث دليلاً على اعتبار شارلمان مرجعاً شرعياً أعلى لحل مشاكل ونزعات تنشأ في الأراضي المقدسة بين المسيحيين (٩) .

٣ - نظرية الأستاذ بـكـلـر

أما الأستاذ بكـلـر (F. W. Buckler) فيني نظريته في الدرجة الأولى على المفاوضات التي قام بها وفد شارلمان الأول (وفد سنة ٧٩٧) ويعتبر على ما يظهر أن باقي الوفود اكمل المفاوضات توثيقاً للصلات التي تم الاتفاق عليها .

ويعترف الأستاذ بكـلـر باننا لا نعرف الوصايا التي زود بها شارلمان وفده . ولكنه يحاول أن يستنتجها من مجرى الحوادث التي حدثت عقب ذهاب الوفد ومن سير المفاوضات الأخرى التي بعث بها شارلمان الى الشرق . فهو يقترح أن هذه المفاوضات كانت

تدور حول الاحتمالات التالية :

(اولاً) تحديد موقف شارلمان بصفة كونه حامياً للمصالح العباسية في عالم البحر المتوسط الغربي .

(ثانياً) عقد تحالف بين الخليفة هرون الرشيد والامبراطور شارلمان فيما يتعلق بمصالحهما المشتركة فيؤلف شارلمان جبهة على اسبانيا ويؤلف الرشيد جبهة على بيزنطية .

(ثالثاً) تمهيد طريق الحج وحماية الحجاج الفرنك في الأراضي المقدسة من تدخل البيزنطيين .

أما فيما يتعلق باسبانيا فالاستاذ بككر يقول بان مجرد ارسال وفد سنة ٧٩٧ اسفرت مفاوضاته عن تغير موقف بعض أمراء المسلمين المعادي تجاه شارلمان ونجم عن ذلك تسليمه مدناً وولايات للحصول على حمايته . وهذا التغير في موقف اولئك الأمراء حمل الأستاذ بككر على الاعتقاد ان مفاوضات وفد سنة ٧٩٧ شملت البحث في اسبانيا وانه من المحتمل جداً أن الخليفة اطلق يد شارلمان في امور اسبانيا وجعله وكيله في الدفاع عن المصالح العباسية هناك (١٠) .

ففي هذا الدور كان الفونسو ، أحد الأمراء التابعين لشارلمان ،

تمكن من الزحف جنوباً إلى مدينة لشبونة بمساعدة فريق من
الأمراء العرب المواليين للعباسيين . وان حسناً والي هويسكا
(Huesca) أرسل مفاتيح هذه المدينة إلى شارلمان واعدأ إياه
تسليمه المدينة إذا ما ساعدته الظروف على ذلك . وسقطت بالفعل
برشلونة في أيدي شارلمان سنة ٨٠٢ بعد حصار سنتين رغم محاولات
قرطبة لرفع الحصار عنها . وعبثاً حاول العرب والبربر المواليون للامويين
استرداد هذه المدن . ويستدل الأستاذ بككر أيضاً على ذلك من
ذكر هذا الخبر في رسالة بين ليو الثالث وشارلمان فخواها أن شارلمان
لم يأخذ على عاتقه حماية المسلمين في اسبانيا بل كان تعاهد على
مساعدهتهم فقط (١١) .

الغرض الثاني من المفاوضات في رأي الأستاذ بككر هو عقد
تحالف سيامي بين هرون الرشيد وشارلمان . ويرجع سبب ذلك
إلى العداء المتواصل بين القسطنطينية وبغداد منذ عهد الخليفة المنصور .
والأستاذ بككر لا يعتقد ان قضية الصلح بين الخليفة هرون الرشيد
والملكة إيريني كان نتيجة لازمة لسعي وفد شارلمان لدى الرشيد
ولكنه يرى انها ربما اثيرت في اثناء ذهاب الوفد البيزنطي الى

بلاط شارلمان . إلا أنه من المحتمل جداً أن هذه القضية كانت اهتمت نتيجة ما تلا عهد الصلح لما نقض تقفور الاول (Nicephorus) المعاهدة العقودة مع الرشيد بارساله كتاباً شديد اللهجة في كانون الأول سنة ٨٠٢ ورفضه دفع الجزية (١٢) . ويرى الأستاذ بكرر هذا النقض سبباً في عدم البحث في قضية الصلح مع البيزنطيين وان البحث دار حول التحالف على البيزنطيين (١٣) .

(١٢) كانت الملكة ارينى عقدت صلحاً مع الرشيد (سنة ١٨٦ هجرية) على ان تدفع جزية سنوية ، فلما اعتلى العرش تقفور كتب الى الرشيد كتاباً شديد اللهجة نقض فيه المعاهدة . وهذا نص الكتاب : « من تقفور ملك الروم الى هرون ملك العرب . اما بعد فان الملكة التي كانت قبلى اقامتك مقام الرخ واقامت نفسها مقام البيدق فحملت اليك من اموالها ما كنت حقيقاً بحمل امثاله اليها لكن ذلك ضعف النساء وحقهن فاذا قرأت كتابى فاردد ما حصل قبلك من اموالها واقتد نفسك بما يقع به المصادرة لك والافالسيف بيننا وبينك » . فاجابه الرشيد : « بسم الله الرحمن الرحيم . من هرون امير المؤمنين الى تقفور كلب الروم . قد قرأت كتابك والجواب ما تراه دون ان تسمعه والسلام » . وهكذا بدأت الحرب بين العاهلين . راجع عن الحرب محمد الحضرى : « مطبعة دار احياء الكتب العربية بصر ، سنة ١٩٢١ ، ص ١٤٥ وما بعد . وكتاب السر وليم ميور « الخلافة » (The Caliphate) طبعة ادنبره سنة ١٩٢٤ ، ص ٤٧٨ وما بعد . (١٣) راجع بكرر ، المصدر الآنف الذكر ، ص ٢٦ - ٢٧ .

الغرض الثالث من المفاوضات تسهيل الحج للفرنك في الاراضي المقدسة . والاستاذ بككر لا يرمي بهذا الى كون معاملة المسلمين للحجاج كانت سيئة لكي تستوجب تدخل شارلمان في الأمر سواء اكان ذلك في القدس أم في انطاكية ام الاسكندرية (١٤) . لكن ذلك الموقف في نظر الأستاذ بككر تغير بعد نقض نفقور الاول معاهدة الصلح . واتجهت سياسة الرشيد نحو الفرنك وأصبحت سياسته عدائية للبيزنطيين وسعى لضعاف نفوذهم في الاراضي المقدسة . وكانت الصلات بين مسيحي الشرق والبيزنطيين توترت نتيجة الاختلاف على عبادة الصور ايضاً وشارك مسيحيو الشرق رأي الكنيسة الغربية في ذلك . ووجد البلاط العباسي هذا الاختلاف في صالح الخلافة العباسية اذ كان النزاع قائماً بينهم وبين القسطنطينية . ويرى الاستاذ بككر دليلاً على ذلك مساعدة البلاط العباسي على نصب بطريق من حزب مسيحي الشرق المعادي للبيزنطيين على كرسي بطريركية الاسكندرية (١٥) . وأمام هذا الموقف السياسي الديني يجد الأستاذ بككر نفسه صادقاً اذا قال بان هرون الرشيد وافق على منح

(١٤) بككر ص ٢٧ .

(١٥) راجع بككر ، المصدر الآنف الذكر ، ص ٢٨ .

شارلمان حق حماية مسيحي الاراضي المقدسة تحاصفاً من نفوذ
البيزنطيين (١٦) .

وأخيراً يرى الاستاذ بككر أن شيئاً شبيهاً بتعاقد رسمي تم بين
الخليفة والامبراطور بشأن هذه الحماية . وما وفد البطريق الذي
ذهب الى شارلمان سنة ٧٩٧ والذي حمل مفاتيح كنيسة القيامة
والراية إلا نتيجة لما تم من الاتفاق بين الخليفة والامبراطور اعترافاً
بطاعة البطريق لصاحب الحماية (١٧) .

٤ — مركز شارلمان الشرعى

بمقتضى نظرية الاستناد بطكر

ثم يتقدم الاستاذ بككر لتحديد الوضع القانوني الذي اتخذته شارلمان
بنتيجة التعاقد الذي تم بينه وبين الخليفة من الوجهة الشرعية . وهو
ييدي بضع نقاط اساسية توصلنا الى ذلك الوضع وهي :

(اولاً) ان حق الحماية على الاراضي المقدسة حصل بنتيجة منحة
الرشد لشارلمان . وبناء على ذلك فان الصلات القانونية يجب أن

(١٦) بككر ، المصدر الآنف الذكر ، ص ٢٨ - ٢٩ .

(١٧) بككر ص ٢٩ - ٣٠ .

تتعين من وجهة نظر المانح (أي بموجب الشرع الاسلامي) وليس بموجب القوانين الفرنكية (١٨) .

(ثانياً) ان التعاقد بين العاهلين لم يكن حلفاً سياسياً اعتيادياً بل كان تحالفاً لتحديد صلات اوثق من ذلك وأدق منه . فان منح حق الحماية على الاراضي المقدسة ربط شارلمان بروابط « الحامي » ويترتب على ذلك تبعات تربطه بالخليفة ربط التابع بالمتبوع .

(ثالثاً) ينجم عن ذلك ايضاً ان منزلة شارلمان الشرعية — مع كونه إمبراطوراً في الغرب — باتت دون منزلة الخليفة هرون الرشيد ، ذلك انه بقبوله الحماية اصبح مرتبطاً ارتباط تابع يستمد سلطته على الاراضي المقدسة من الخليفة صاحب السلطة العليا في دار الاسلام . أما شارلمان فهو متسلم المنحة (حق حماية الاراضي المقدسة) ضمن دار الاسلام وخاضع لاحكام الشرع الاسلامي (١٩) . ويستند الاستاذ بككر لدعم رأيه هذا الى الوجه الذي نال به شارلمان تلك المنحة فالخليفة هرون الرشيد أنعم على تابعه بخلاعة — وهذا ما جرى عليه خلفاء بني العباس في الانعام على وزرائهم وتابعيهم — والخلاعة

(١٨) راجع كتاب الاستاذ بككر الآنف الذكر ، المقدمة .

(١٩) بككر ص ٣٢ .

هي انعام من كبير على انسان دونه مرتبة . وان قبول شارلمان
 — في رأي الاستاذ بككر — خلعة الرشيد دليل على تابعيته له (٢٠).
 ويستشهد الاستاذ بككر بفقينه مسلم على امكان اسناد مثل هذا
 المنصب الى شارلمان . فهو يرى ان في « كتاب الاحكام السلطانية »
 للقاضي ابي الحسن علي الماوردي منصب « امارة الفتح » لتوكيل
 الغزو في خارج دار الاسلام الى امير وان هذه الامارة يجوز اسنادها
 الى غير المسلمين (٢١) . فالماوردي يقول ، على ما يقول به الاستاذ
 بككر ، متى ما استطاع انسان ان يفتح قطراً عنوة وينصب نفسه
 اميراً قيد سلطة الخليفة يجوز ان يعترف به الخليفة اميراً للفتح وان
 يبقى في منصبه لادارة ذلك القطر على ان تكون الامامة للخليفة
 بالطبع (٢٢) .

(٢٠) بككر ص ٣٤ .

(٢١) بككر ص ٣٤ — ٣٥ .

(٢٢) يستعمل الاستاذ بككر « كتاب الاحكام السلطانية » طبعة بون
 Bonn (سنة ١٨٥٣ لناشره انكر (Engel) ص ٥٤ — ٥٧ .
 ويقابل هذه الصفحات بالطبعة المصرية (مطبعة السعادة سنة ١٩٠٩)
 الطبعة الاولى ص ٢٤ — ٢٩ . ويقول الاستاذ بككر بان الماوردي
 وضع كتابه في منتصف القرن الحادي عشر فهو يقرر قاعدة شرعية
 بعد مضي قرنين من عهد الرشيد . ولكن الاستاذ بككر يسترسل فيقول

فاذا صحت هذه الاسس فلاستاذ بككر يتقدم لتعريف مركز شارلمان الشرعي تعريفاً اذق مما سبق . فهو يقول بأن شارلمان اصبح « اميراً للفتح » على اسبانيا و « والياً » على القدس ضمن سيادة الخليفة العباسي (٢٣) فهو بهذا الاعتبار يعد وارثاً لامارة الفتح على اسبانيا للملك بين القيصر ، القائد العلاء بن مغيث . وبموجب مفاوضات سنة ٧٩٧ وما تلاها اسندت اليه ايضاً ولاية القدس فاصبح حامياً للأراضي المقدسة . وقد اعترف بهذا الوضع بطريق القدس بدليل ارساله مفاتيح كنيسة القيامة والراية التي ترمز الى الطاعة والولاء الى الوالي الجديد .

بيد ان هذا الوضع الشرعي لم يدم طويلاً في نظر الاستاذ بككر خلاف ما ذهب اليه المسيو برييه . لأن تسوية المنازعات بين العباسيين والبيزنطيين من جهة ، وبين البيزنطيين والفرنك من جهة

ان الماوردى كان على مذهب الامام الشافعى ، وان الامام هذا كان يحاضر في بغداد الى ان توفي سنة ٨٢٠ . فالماوردى اذن يقرر قاعدة شرعية معترف بها في دار الاسلام منذ عهد الرشيد . وبهذا الاعتبار محتمل انها كانت مرعية في عهد الخليفة في علاقاته الخارجية . راجع بككر ص ٣٥ .

(٢٣) بككر ص ٣٥ .

اخرى، اضعفت رابطة المصالح المشتركة بين الخليفة والامبراطور (٢٤) وكذلك ان انشغال الخليفة هرون الرشيد بامور فارس وعناية شارلمان بامور الغرب صرفا نظر العاهلين عن الاراضي المقدسة (٢٥) وكان نفوذ الامويين في اسبانيا ايضاً تعاضم فبسطوا سيادتهم على معظم بقاع ايبيريا، وتم في الواقع الصلح بين الامويين وشارلمان وانتهى النزاع بينهما. ولا ريب في ان هذه الظروف الجديدة عملت عملها في الاقلال من شأن الصلات بين هرون الرشيد وشارلمان وقطعت حركة تبادل الرسل والسفراء بينهما. ثم جاء الامين بعد الرشيد فشغلته الحروب الداخلية ولا سيما النزاع الذي نشأ بينه وبين اخيه المأمون. وتوفي ايضاً شارلمان سنة ٨١٤ فانتهى عهد المراسلات الدبلوماسية بين العباسيين والفرنك. وكان خلفاء المأمون وشارلمان عرضوا عن العناية بالشؤون الخارجية نظراً الى الاحوال العصيبة في داخل مملكتهم. أجل ان بعثة دبلوماسية كانت أوفدت سنة ٧٣١ إلى الشرق لما ارسل المأمون وفداً في بدء نزاعه مع البيزنطيين إلى بلاط لويس (٢٦)، ولكنها لم تقو على اعادة المصالح المشتركة

(٢٤) بكسر ص ٣٧ .

(٢٥) بكسر ص ٣٧ - ٣٨ .

(٢٦) بكسر ص ٤٠ .

بين بغداد وآخن لأن مجرى التاريخ كان معاكساً هذا التقارب .

٥ - نظر نظرية الاستاذ بككر

في نظرية الاستاذ بككر والمركز الشرعي الذي حددته
للإمبراطور شارلمان بضع نقاط تستوجب الدرس والتمحيص قبل
قبولها أو رفضها . فهو يضع نظرية تستند غالباً إلى مفترضات يقررها
بلا مستندات أو وثائق تؤيدها تأييداً واضحاً . ثم ان الناحية
القانونية منها لا تتفق والقواعد الشرعية المرعية حينئذ في العالم
الإسلامي . والذي نراه ان نظرية الاستاذ بككر ضعيفة من الوجهتين
التاريخية والشرعية .

أما من الناحية التاريخية فالمصادر والمستندات الأولى لا تسوغ
للباحث ان يقرر حوادث لا تذكرها ولا تشير اليها المصادر
المعاصرة سواء اكان ذلك بالذات أم بالواسطة . لأنه اذا لم تشير
المصادر المعاصرة إلى حادثة أو حقيقة تاريخية فكيف يصح للباحث
ان يفرضها فرضاً دون ان تشير اليها المصادر ولو بالواسطة ؟ وهذه
قاعدة عامة في اصول البحث يسير عليها كل باحث مدقق .
ونظرية الاستاذ بككر هي من المفترضات التي لا تؤيدها المصادر

والمستندات المعاصرة... مرة على الاطلاق . لاننا اذا دققنا « الاخبار الملكية » وهي معتبرة أوثق مصدر وصلنا عن اعمال الأمبرطور شارلمان لا نجد البتة ما يؤيد نظرية الأستاذ بكرر . أجل ان اشتراك المصالح العباسية والفرنكية تساعد على تكوين جبهة معادية للجبهة البيزنطية والأموية ، ولكن ذلك لا يعني ابدأً ان الخليفة عقد حلفاً لاطلاق يد الأمبرطور في اسبانيا أو انه عينه حامياً على الاراضي المقدسة في فلسطين ، لأن مثل هذا الاستنتاج يفتقر إلى ادلة ايجابية أخرى غير اشتراك المصالح وارسال البطريق مفاتيح كنيسة القيامة الى الامبراطور شارلمان .

اما من الوجهة القانونية فنظرية الاستاذ بكرر لا تقل ضعفاً عن وجهتها التاريخية لانها لا تتفق والقواعد العامة في الشرع الاسلامي . فلاستاذ بكرر يقرر (اولاً) ان الخليفة اعترف بالأمبراطور « امير فتح » على اسبانيا و (ثانياً) انه عين الامبراطور « والياً » على القدس . ولا يخفى ان امير الفتح هو عامل خليفة المسلمين للقيام بالفتح ونشر الدين الاسلامي في خارج « دار الاسلام » (٢٧) .

(٢٧) هذه الامارة تكون اما عامة واما خاصة ، فالعامة قد تكون عن اختيار او اضطرار من الخليفة وهي تتناول امارة الاقليم والنظر في تدبير الجيش وجباية الخراج وحماية الدين واقامة الحدود وتسيير الحجيج

وواضح ان القيام بمثل هذا الواجب يتطلب من المرء ان يكون مسلماً لا يفاء شروطه (٢٨) . ولا صحة لقول الاستاذ بككر ان في « كتاب الاحكام السلطانية » للماوردي ما يجيز اسناد مثل هذا المنصب إلى غير المسلمين (٢٩) . فاذا ثبت قولنا هذا فان تعيين

وجهاد من يليه من الاعداء . راجع الماوردي : « كتاب الاحكام السلطانية » طبعة مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٠٩ ، ص ٢٤-٢٥ . اما الامارة الخاصة فهي : « ان يكون الامير مقصور الامارة على تدبير الجيش وسياسة الرعية وحماية البيضة والذب عن الحرم وليس له ان يتعرض للقضاء والاحكام ولجباية الخراج والصدقات . . . » . راجع الماوردي ص ٢٦ .

(٢٨) يذكر ابن رشد في « كتاب المقدمات الممهدة » ستة شروط يجب ان تتوفر في المجاهد في سبيل الدين . واول هذه الشروط هي الايمان بالدين الاسلامي بحكم الآية ١٠ من سورة الصف . ويستنتج من ذلك ان امير الفتح الذي يقوم بالجهاد هو اولى ان تتوفر فيه هذا الشرط . راجع ابن رشد : « كتاب المقدمات الممهدة » طبع القاهرة ، سنة ١٣٢٥ هجرية ، ج ١ ، ص ٢٦٦ . راجع ايضا عن شروط الجهاد وواجبات امارته في قسم الجهاد من كتاب « تحفة الانفس وشعار سكان الاندلس » لناشره لويس مرسى (Louis Mercier) مطبعة كثر (Paul Geuthner) ، باريس ، سنة ١٩٣٩ .

(٢٩) راجع بككر ص ٣٤ . قارن قول الاستاذ بككر بالشروط الشرعية لامارة الفتح كما في « كتاب الاحكام السلطانية » للماوردي ص ٢٤ - ٢٩ .

الامبراطور شارلمان « امير فتح » على اسبانيا لا يتفق واحكام
الشرع الاسلامي الذي يبنى عليه الأستاذ بكر نظريته .

(ثانياً) تفرض نظرية الأستاذ بكر ان شارلمان اصبح
« والياً » على القدس وقد انيطت به حماية الأراضي المقدسة .
والواقع ان الشروط الشرعية للولاية لا تختلف من حيث الأساس
عن الشروط الشرعية للامارة العامة ما عدا فريضة « جهاد من يليه
من الأعداء » . فاذا فسرنا نظرية الأستاذ بكر بأنه يريد الولاية
على مسيحيي الشرق فقط ففي ذلك ايضاً ما يتعارض والحقائق
التاريخية الراهنة ، لأن الأمبراطور بصفة كونه تابعاً للخليفة لم يدفع
الجزية وليس هناك ما يشير إلى انه فعل ذلك (٣٠) . كما ان اعطاء
حق الحماية لشارلمان معناه ان الخليفة قد رفع حمايته عن الذميين في
الأراضي المقدسة وانهم أصبحوا خارج حظيرة دار الاسلام . وهذا
ايضاً لا يتفق والواقع إذ ليس هناك ما يبين ان ذمي الأراضي
المقدسة قد اعتبروا خارج حظيرة دار الاسلام أو انهم تركوا
مركزهم كذميين .

(٣٠) راجع نقد الأستاذ جورنسن لكتاب الأستاذ بكر في مجلة
(Speculum) المجلد ٧ ، العدد الاول (كانون الثاني سنة ١٩٣٤)

والذي نراه ان الأراضي المقدسة لم تكن موضوعا للمساومة بين الخليفة والامبراطور وان المفاوضات حولها لم تكن ذات صبغة سياسية . ومن المحتمل ان يكون الامبراطور شارلمان طلب تسهيل الحج للفرنك أو انه أرسل اعانات مالية لتسهيل العلاقات الدينية بين أوروبا والشرق ولكن هذه الأعمال ليس في الامكان تفسيرها على اساس الحصول على امتيازات سياسية في الأراضي المقدسة . اما ان تفسير ارسال البطريق مفاتيح كنيسة القيامة إلى شارلمان على وجه سياسي فهذا ايضا يتعارض والقواعد الشرعية بشأن موقف « أهل الذمة » ، لأن رؤساء الذميين ، بل وكل ذمي في دار الاسلام ، لم يكن بوسعهم شرعا ان يتفاوض مع ملوك أو امراء « دار الحرب » فيما يتعلق « بدار الاسلام (٣١) » . وتفسير ارسال المفاتيح والراية على اساس التنازل لشارلمان عن الأراضي المقدسة

(٣١) راجع الماوردي : « كتاب الاحكام السلطانية » ص ١٢٩ .

وبوسع المرء ان يستنتج ضمنا هذه القاعدة ايضا من المعاهدات التي عقدها الذميون مع امراء الفتح الاسلامي . راجع المعاهدة المعقودة بين عمر بن الخطاب وبطريق القدس سنة ١٧ هجرية (سنة ٦٣٨ ميلادية) في الطبري : « تاريخ الرسل والملوك » لنشره دي غويي (de Geojje) مطبعة ليدن سنة ١٨٩٣ ، السلسلة الاولى ، ج ٥ ، ص ٢٤٠٥ -

هو مخالفة هذا العهد ويستوجب غضب الخليفة . والذي نراه ان
الطريق اغتم فرصة الصلات الودية التي نشأت بين الخليفة
والامبراطور فارسل اليه المفاتيح والراية رمزاً الى التقدير واستحساناً
للاعانات المالية التي ارسلها شارلمان الى الاراضي المقدسة .



كلمة ختامية:

وبوسع القاريء ان يستنتج الآن ان النظريات التي جاء بها
كل من المسيو برييه وكلينكلوز وبكر فيما يتعلق بحقوق الحماية أو
الامتيازات السياسية في الاراضي المقدسة وحقوق الامارة في اسبانيا
يجب اهمالها واعتبارها ضعيفة لا تستند على اسس علمية تاريخية أو
شرعية . ذلك لأن الصلات الدبلوماسية بين الرشيد وشارلمان
كانت صلات ودية قبل كل شيء ولكنها — بمدى ما تسوغ لنا
المصادر استنتاجه — لم تسفر عن تحالف سياسي ما بينهما مع اقرارنا
بان الظروف التي حاطت بها والدوافع التي ادت إلى التقارب بين
العاهلين كانت على الأكثر سياسية . أو بجملة اخرى ان المصالح
السياسية المشتركة بين الخليفة والامبراطور (اي العداء مع البيزنطيين
والامويين في الاندلس) ادت إلى فتح المفاوضات بينهما وإلى

تبادل السفراء والهدايا ، ولكن هذه المفاوضات لم تسفر عن تأليف حلف سياسي أو عقد معاهدة تحالف بين العاهلين .

والذي نراه ان المصادر اللاتينية المعاصرة بالغت كثيراً في خطورة هذه الصلات وفي شأنها السياسي فنسجت حول البعثات الدبلوماسية ما شاءت لها مخيلات مؤلفيها ان ينسجه من الاراء تعظيماً لمركز الامبراطور شارلمان في الغرب ، ولا سيما ما دونه راهب في تاريخ حياة شارلمان بعد خمسين سنة من وفاته ، وقد اعتمد هذا الراهب كثيراً على قوته الخييلة (١) فنسج حول وفود الخليفة والبطريق من مبتدعات ذهنه ومن العبارات المبهمة التي ذكرها آينهارد اراء خيالية دفعت فيما بعد بعض الكتاب المحدثين إلى وضع نظريات الحماية والامتيازات السياسية في الاراضي المقدسة (٢).

—————:٥:—————

(١) راجع كتاب هلفن : « دراسات انتقادية لتاريخ شارلمان »

ص ١٤٢ وعنوان الكتاب :

L. Halphen, *Etudes Critiques sur l'Histoire de Charlemagne* (Paris : Félix Alcan, 1921), P. 142.

(٢) راجع رأي رنسيمان في مقاله « شارلمان وفلسطين » ص ٦١٩ :

Steven Runciman, "Charlemagne and Palestine", *English Historical Review*, Vol.L. (Oct. 1935) , P. 619.

وهنا لا بد من الاشارة ايضا الى الفكرة الخيالية التي ذكرت بعد

قرن من وفاة الامبراطور شارلمان بشأن حملته الصليبية على الاراضي

المقدسة . ولا حاجة الى نقد هذه الفكرة الخيالية .

مردول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١	٩ (حاشية)	آخرين	آخران
٣	٤	المصادر	المصادر
١١	١٣ (الحاشية)	لناشر	لناشره
١٢	٣	ويضمونها	ويضموها
٢٠	١٣	تناصر	تناصرها
٤٥	٦	ونزعات	ونزاعات
٤٨	١٢ (الحاشية)	محمد الخصري :	محمد الخصري : (الدولة العباسية)

